فلسفة التاريخ الاسلامي

في القرن السابع للهجرة

كان التاريخ الاسلامي من التواريخ المصابة بالجمود والتعصب ، فلم يمحص من الاكاذيب والتوليدات والخرافات ، ولم يتخلص من قيود الرواية الشعوبية والاسناد التعصبي، ولم يتملص من سلطة دجاجلة الدين الا في عهود هي في تاريخ الاسلام كالشبابيك المنيرة لغرفات السجون الحالكة ، ولقصر هذه العهود المنيرة والموازرة بينها ، نظر المحققون الى تاريخنا الاسلامي نظرهم الى الآثار المهملة والابنية العتيقة المتداعية التي طالما استرمّت فلم يرمها أحد واستهدمت فلم يجدّد ، والحق في ناحيتهم لانه — على كونه تاريخنا — نرى فيه من الاضطراب والتناقض والاختلاق والمبالغات ما لا يسكت عليه الا جاهل ولا يؤمن به الا دجال مخادع ، وحسبك دليلاً على ما ذكرنا ان بعض المنافقين كانوا يكذبون على رسول الله — ص — في حياته فيسمع باكاذيبهم ويصعد المنبر ويعلن الناس بانها مكذوبة ، والاسلام حينئذٍ غض فتيّ والايمان شمس مشرقة والنواميس ثابتة الاعلام راسخة العرى . ان كل تاريخ لامندوحة لاهله عن تفهم فلسفته ، ولابد لهم من تفتيشه في مسبار التمحيص كتفتيش الذهب المخلوط بغيره في البوتقة ، وان الفلسفة تساير حرية الدين وإباحة المعتقدات وعهد ترقي العقل، وتخمد في عصور دجاجلة المتسلطين والسلاطين الجاهلين والشعوب المبتلاة بالتعصب الاعمى

إن قلة فلسفة التاريخ الاسلامي ناشئة من ان اسلافنا — على رأي جماعة — ناس كاملون كمالاً بشريًّا فافعالهم كاملة صالحة بعد افعال انبيائهم — ان لم تكنها — فمن تعرض لها بتمحيص او نقد او تحليل كان ملحداً زنديقاً فيلسوفاً ، والفلسفة كانت عندهم ترادف الزندقة ، مع ان هؤلاء الجاهلين لو تتبعوا الاخبار تتبع ناقل عاقل لا جاهل لوجدوا ان اولئك الاسلاف الآدميين كثيراً ما غلطوا فاستدركوا غلطهم وطالما وهموا فوقفوا على اوهامهم وربما تاهوا فارشدوا الى اللقم الطريق

ومما نستحسن ذكره هنا انه قد جاء في الاخبار ان الامام عليًّا — ع — كان يتكلم مع جماعة فرّ به يهودي فقال له « لو انك تعلمت الفلسفة — يا ابن ابي طالب — لكان يكون لك شأن من الشؤون » فقال له الامام علي « وما تعني بالفلسفة ؟ أليس من اعتدل طباعه صفا مزاجه ومن صفا مزاجه قوي أثر النفس فيه ومن قوي أثر النفس فيه سما إلى ما يرتقيه ومن سما الى ما يرتقيه فقد تخلق بالاخلاق النفسانية ومن تخلق بالاخلاق النفسانية فقد صار موجوداً بما هو انسان دون ان يكون موجوداً بما هو حيوان وقد دخل في الباب الملكي الصوري وليس له عن هذه

الغاية مصير » فقال اليهودي : « نطقت بالفلسفة جميعها في هذه الكلمات يا ابن ابي طالب[١] »
فهذه الحكاية سواء أكانت صحيحة ام مولدة تثبت عليهم جواز تعلم الفلسفة لان الذي يبتدع حديثاً لاستجاز شيء هو راض به مجيز له بداهة .

ولو تتبع منصف واقف ضحايا الفلسفة والزندقة في تاريخ الاسلام لذابت نفسه أسفاً من اتخاذهم الدين وسيلة للتشفي والثأر وستر عيوب السياسة واشباع الطمع وماشاة الحشد وطلب الدنيا والجاه ، ولا اترك القارىء وفي نفسه شيء مما قلت بل اذكر له بعض الحوادث الدالة على صحة الدعوى ، فقد نقل الجاحظ عن عبد الله بن ياسين : ان المهدي بن المنصور كان فيه غزل وشدة حب للخلوة بالنساء فبلغه جمال عن ابنة لكاتبه ابي عبيد الله فقال للخيزران : « استزيريها فاستزارتها وجاءت اليها ، فقالت لها الخيزران : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلت الحمام وافاها المهدي فبرزت له ولم تستتر عنه فقال لها : انا وليك فزوجيني نفسك ، فقالت انا أمسك ، فتزوجها ونال منها ، فلما انصرفت أخبرت إخوتها بما كان فقالوا : أمسكي عنه ، فلما كان بعد مدة قالوا لها : استزيري الخيزران ، فاستزارتها ، فلما صارت اليها قالت : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلتا معاً ما شعرت الخيزران الا ببني أبي عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم ، فقالوا لها . لو اردنا ان نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا ولكننا لا نستحل فقالت: والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم ، فانصرفوا ، فلما رجعت الخيزران اخبرت المهدي بذلك فكان السبب في قتل المهدي لمحمد بن أبي عبيد الله على الزندقة

ولما استولى البويهيون على العراق وما اليه ازدهرت الفلسفة ازدهاراً عجيباً فنشأت رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء وغيرها وسبب ذلك المسامحة الدينية وتحرير العقول بل تجاوزت الفلسفة الى الشعراء كالمعري أبي العلاء الفيلسوف

والقرن الذي نريد الابانة عن فلسفة التاريخ الاسلامي فيه كان فاتحة عصور الحرية الدينية في الشرق فقد كثر فيه الفلاسفة على اختلاف نحلهم وبلغ أولو الامر فيه الى درجة رفيعة من العلم كأبي العباس أمير المؤمنين احمد الناصر لدين الله العباسي أعظم ساسة الخلفاء العباسيين ومجدد الدولة العباسية وخلافته من سنة « ٥٧٥ الى ٦٢٢ » هـ كان العلم فيها سامي المكانة عظيم الحفاوة وافر الاقبال واشتهر من الفلاسفة في هذا القرن السابع « ٦٠٠ — ٧٠٠ » محمد بن سليمان بن قتلمش حاجب الناصر لدين الله الاكبر . وسيف الدين ابو الحسن علي الآمدي ومعين الدين سالم بن بدران المعتزلي وجعفر القطاع الملقب بالمديد البغدادي والموفق عبد اللطيف البغدادي وفخر الدين محمد بن عمر الرازي وركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي ، والحسن بن الامير أبي علي بن نظام الملك الوزير ومحمد بن ميشر

(١) صحيفة الابرار « ج ١ ص ١٢٨ »

البغدادي والحسن بن محمد الاربلي الضرير الملقب عز الدين وعبد الحميد بن أبي الحديد المدائني وعلي بن يوسف القفطي وموسى بن ميمون اليهودي الاندلسي ونجم الدين الخجواني ونصير الدين محمد الطوسي شيخ الفلاسفة وموسى بن يونس العقيلي الموصلي وعز الدولة بن كمونة اليهودي صاحب الابحاث عن الملل الثلاث وكمال الدين حسن بن يحيى ، اما ابو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلوي نقيب البصرة فقد كان فريداً في فلسفة التاريخ ويليه في ذلك محمد بن سليمان بن قتلش . والآن ننقل للقارىء شيئاً من فلسفته في التاريخ الاسلامي وكانت وفاته سنة « ٦٢٠ » هـ [1] « اعني وفاة محمد بن سليمان »

قال عبد الحميد بن ابي الحديد المدائني « حدثني جعفر بن مكي الحاجب — رحمه الله [2] — قال : سألت محمد بن سليمان حاجب الحجاب (وقد رأيت أنا محمد هذا وكانت لي به معرفة غير مستحكمة وكان ظريفاً اديباً وقد اشتغل بالرياضيات والفلسفة ولم يكن يتعصب لمذهب بعينه) قال جعفر : سألته عما عنده في امر علي وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم وكان ابو سفيان يحسد محمداً — ص — وحاربه ولم تزل الثنتان متباغضتين وان جمعتهما المنافيشة ، ثم ان رسول الله — ص — زوج عليا بابنته وزوج عثمان بابنته الاخرى ، وكان اختصاص رسول الله لفاطمة اكثر من اختصاصه للبنت الاخرى وللثانية التي تزوجها عثمان بعد وفاة الاولى ، واختصاصه ايضاً لعلي وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه اياه لنفسه اكثر واعظم من اختصاصه لعثمان ، فنفس عثمان ذلك عليه فتباعد ما بين قلبيهما ، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الاختين من مباغضة أو مشاجرة أو كلام ينتقل عن احداهما الى الاخرى فيتكدر قلبها على أختها ويكون ذلك التكدر سبباً لتكدر ما بين البعلين ايضاً — كما شاهده في عصرنا وفي غيره من الاعصار — وقد قيل : ما قطع بين الاختين كالزوجتين ، ثم اتفق ان علياً قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله — ص — فتأكد الشنآن ، واذا استوحش الانسان من صاحبه استوحش صاحبه منه ، ثم مات رسول الله — ص — فصبا الى علي جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ولا حضر في دار فاطمة مع من حضر من المتخلفين عن البيعة وكانت في نفس علي امور عن الخلافة لم يمكنه اظهارها في ايام ابي بكر وعمر لقوة عمر وشدته وانبساط يده ولسانه ، فلما قتل عمر وجعل الامر شورى بين الستة وعدل عبد الرحمن بها عن علي الى عثمان ، لم يملك نفسه علي ، فأظهر ما كان كامناً وأبدى ما كان مستوراً ولم يزل الامر يتزايد حتى اشرى ما بينهما وتفاقم ، ومع ذلك فلم يكن علي لينكر من امره الا

(١) كتابنا « السنون الثالثة من الحوادث الجامعة » (٢) توفي سنة « ٦٣٩ » كما في ص ١٤٨ من الحوادث الجامعة لعبد الرزاق بن الفوطي الذي قمنا بطبعه حديثاً وكما في « ٥ : ٤٦ » من طبقات الشافعية الكبرى لتاج وراجع شرح ابن ابي الحديد « ٢ : ٢٢٠ ، ٤٠١ » و « ٣ : ٣٨٢ »

منكراً ولا ينهاه إلا عما تقتضي الشريعة نهيه عنه وكان عثمان مستضعفاً في نفسه رخواً قليل الحزم واهي العقدة وسلم عنانه الى مروان يصرفه كيف شاء فالخلافة له في المعنى ولعثمان في الاسم فلما انتقض على عثمان امره استصرخ علياً ولاذ به والقى زمام امره اليه فدافع عنه حيث لا ينفع الدفاع وذب عنه حين لا يغني الذب فقد كان الأمر فسد فساداً لا يرجى صلاحه »

قال جعفر « فقلت له : أتقول ان علياً وجد من خلافة عثمان أعظم مما وجد من خلافة ابي بكر وعمر ؟ فقال . كيف يكون ذلك وعمر فرع لهما ولولاهما لم يصل الى الخلافة ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ولا تخطر له ببال ، ولكن ههنا امر يقتضي في عثمان زيادة المنافسة وهو اجتماعهما في النسب وكونهما من بني عبد مناف والانسان ينافس ابن عمه الادنى أكثر من منافسته الأبعد ويهون عليه من الابعد ما لا يهون عليه من الاقرب »

قال جعفر « فقلت له : فما تقول في هذا الاختلاف الواقع في امر الامامة من مبدأ الحال وما الذي تقنه اصله ومنبعه ؟ فقال : لا اعلم لهذا اصلاً الا امرين احدهما ان رسول الله — ص — اهمل امر الامامة فلم يصرح فيه باحد بعينه وانما كان هنالك رمز وايماء وكناية وتعريض لو اراد صاحبه ان يحتج به وقت الاختلاف وحال المنازعة لم يقم منه صورة حجة تغني ولا دلالة تحسب وتكفي ولذلك لم يحتج علي يوم السقيفة بما ورد فيه لانه لم يكن نصاً جلياً يقطع العذر ويوجب الحجة وعادة الملوك اذا عهد منكهم واراد العقد لولد من اولادهم او ثقة من ثقاتهم : ان يصرحوا بذكره ويخطبوا باسمه على اعناق المنابر وبين فواصل الخطب ويكتبوا بذلك الى الآفاق البعيدة عنهم والاقطار النائية منهم ومن كان ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك بحيث تزول الشبهة في امره ويسقط الارتياب بحاله فليس امر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصير في مظنة الاشتباه واللبس ولعله كان لرسول الله — ص — عذر في ذلك لا نعلمه نحن إما خشية من فساد الأمر وارجاف المنافقين وقولهم : إنها ليست بنبوة وانما هي ملك أوصى به من بعده لذريته وسلالته ولما لم يكن أحد من تلك الذرية في تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصغر السن جعله لابيهم ليكون في الحقيقة لزوجته التي هي ابنته ولأولاده منها من بعده ، وأما ما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل العدل : أن الله — تعالى — علم أن المكلفين يكونون على ترك الامر مهملاً غير معين أقرب الى فعل الواجب وتجنب القبيح ، ولعل رسول الله — ص — لم يكن يعلم في مرضه انه يموت في ذلك المرض وكان يرجو البقاء فيمهد للأمامة قاعدة واضحة ومما يدل على ذلك : انه لما توزع في احضار الدواة والكتف ليكتب لهم ما لا يضلون بعده غضب وقال : اخرجوا عني ، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرفهم رشدهم ويهديهم الى مصالحهم ، بل ارجأ الأمر إرجاء من يرتقب الأفاقة وينتظر

العامية ، فتلك الأقوال المحجمة والكنايات المحتملة والرموز المشتبهة مثل حديث خصف النعل ومنزلة هرون من موسى ومن كنت مولاه وهذا يعسوب الدين ولا فتى الا علي وأحب خلقك إليك وما جرى هذا المجرى مما لا يفصل الأمر ولا يقطع العذر ولا يسكت الخصم ولا يفحم المنازع وثبت الأنصار فادعتها ووثب بنو هاشم فادعوها وقال ابو بكر : بايعوا عمر او أبا عبيدة وقال العباس لعلي : امدد يدك لأبايعك ، وقال قوم ممن رعف به الدهر في ما بعد ولم يكن موجوداً حينئذ . إن الأمر كان للعباس لأنه العم الوارث وإن أبا بكر وعمر ظلماه وغصباه حقه ، فهذا أحدها . واما السبب الثاني للاختلاف فهو جعل عمر الأمر شورى في الستة ولم ينص على واحد بعينه إما منهم وإما من غيرهم فبقي في نفس كل واحد منهم أنه قد رشح للخلافة وأهل للملك والسلطنة فلم يزل ذلك في نفوسهم واذهانهم مصوراً بين اعينهم مرتسماً في خيالاتهم منازعة اليه نفوسهم طامحة نحوه عيونهم حتى كان من الشقاق بين علي وعثمان ما كان وحتى أفضى الأمر الى قتل عثمان وكان اعظم الاسباب في قتله طلحة وكان لا يشك ان الأمر له من بعده لوجوه منها : سابقته ومنها : انه ابن عم لأبي بكر ، وكان لأبي بكر في نفوس اهل ذلك العصر منزلة عظيمة اعظم منها الآن ومنها : انه كان سمحاً جواداً ، وقد كان نازع عمر في حياة ابي بكر وأحب ان يفوض ابو بكر الأمر اليه من بعده ، فما زال يفتل في الذروة والغارب في أمر عثمان ويكثر له القلوب ويكدر عليه النفوس ويغري أهل المدينة والأعراب واهل الأمصار به وساعده الزبير ، وكان ايضاً يرجو الأمر لنفسه ، ولم يكن رجاؤها هذا الأمر دون رجاء علي بل رجاؤها كان اقوى لأن عليا دحضة الأولان واسقطاه وكسرا ناموسه بين الناس فصار نسياً منسياً ومات الأكثر ممن يعرف خصائصه التي كانت في ايام النبوة وفضله ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه إلا رجلاً من عرض المسلمين ولم يبق له مما بيت به الا انه ابن عم الرسول وزوج ابنته وأبو سبطيه ونسي ما وراء ذلك كله واتفق لهم من بغض قريش وانحرافها ما لم يتفق لأحد وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحب طلحة والزبير لان الأسباب الموجبة لبغضهم لهما لم تكن موجودة فيهما وكانا يتألفان قريشاً في اواخر ايام عثمان وبعدانهم بالعطاء والأفضال وهما عند انفسهما وعند الناس خليقتان بالقوة بالفعل لأن عمر نص عليهما وارتضاهما للخلافة وعمر متبع القول مرضي الفعال موفق مؤيد مطاع نافذ الحكم في حياته وبعد وفاته ، فلما قتل عثمان ارادها طلحة وحرص عليها فلولا الأشتر وقوم معه من شجعان العرب جعلوها في علي لم تصل اليه ابداً ، فلما فاتت طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم على علي واخرجاه أم المؤمنين معهما وقصدا العراق وأثارا الفتنة وكان من حرب الجمل ما قد علم وعرف ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين فان معاوية لم يكن ليفعل ما فعل لولا طمعه بما جرى في البصرة ثم اوهم اهل الشام ان علياً فسق بمحاربة ام المؤمنين ومحاربة المسلمين وانه قتل طلحة والزبير وهما من اهل الجنة

ومن يقتل مؤمناً من اهل الجنة فهو من اهل النار ، فهل كان الفساد المتولد في صفين الاّ فرعاً للفساد الكائن يوم الجمل ، ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ماجرى من الفساد والقبيح في ايام بني امية ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاً من فروع يوم الدار لان عبد الله كان يقول : ان عثمان لما ايقن بالقتل نص على عليّ بالخلافة ولي بذلك شهود منهم مروان بن الحكم ، افلا ترى كيف تسلسلت هذه الامور فرعاً على اصل وغصناً من شجرة وجذوة من ضرام هكذا يدور بعضه على بعض وكله من الشورى في الستة واعجب من ذلك قول عمر — وقد قيل له : انك استعملت يزيد بن ابي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وابناء الطلقاء وتركت ان تستعمل عليّاً والعباس والزبير وطلحة — فقال : اما علي فأنبه من ذلك وأما هؤلاء النفر من قريش فاني اخاف ان يلتشروا في البلاد فيكثروا فيها الفساد ، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك ويدعيه كل واحد منهم لنفسه كيف لم يخف من جعلهم ستة متساوين في الشورى مرشحين للخلافة ؟ وقد روي ان الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان فسرّ بذلك فلما غابا عن عينه بكى فقال له الفضل بن الربيع : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا مقام جذل لا مقام حزن ؟ » فقال : « اما رأيت لعبهما ومودة بينهما اما والله ليتبدلنّ ذلك بغضاً وسيفاً وليختلس كل واحد منهما نفس صاحبه عن قريب فان الملك عقيم » وكان الرشيد قد عقد لهما الامر على ترتيب هذا بعد هذا فكيف من لم يرتبهما في الخلافة بل جعلوا فيها كأسنان المشط ؟ » قال عبد الحميد بن ابي الحديد : فقلت انا لجعفر هذا كله تحكيه عن محمد بن سليمان فما تقول انت فقال :

اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام [1] »

ونحن لم ننقل هذا ونحن مؤمنون بما جاء فيه وانما لنبين للقارىء كيف كانت فلسفة التاريخ الاسلامي في ذلك القرن السابع والى أي غاية بلغت من تحري الحقائق ورجع الحوادث الى اسبابها وكان في هذا العصر خروج التتر على الشرق الادنى فاستحوذوا عليه بحروب دونها الحروب العظمى ولكن الحرية الدينية زادت زيادة عظيمة مع حرية التمذهب والمذاهب فترقت الفلسفة في الشرق الادنى ، فالقآن (الخاقان) قوبلاي مثلاً ، وهو سلطان المغول ، كان يحب الحكماء والفلاسفة والعلماء والمتدينين من سائر المذاهب والامم [2] وفي ذلك العصر ألف كتاب « الآداب السلطانية » المعروف بالفخري وهو مبني على فلسفة التاريخ والاصول العلمية ومنهُ اقتبس المرحوم جرجي زيدان قواعد التأليف في التاريخ كما يظهر لكل عارف بأساليب التأليف التاريخي ، هذا ولا نرى في انفسنا حاجة الى ذكر مثال آخر لفلسفة التاريخ الاسلامي في هذا العصر لانّ في ما قدمنا اسهاباً وكفاية بالنسبة الى مواضع النشر

بغداد مصطفى جواد

(١) السنود الضائعة في حوادث سنة « ٦٢٠ » (٢) مختصر الدول ص ٤٩١